

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ

دوامُ السير مع خطبة أمير المؤمنين (ع)

لحدِّ الان قد طرحتنا مرحلة المعرفة الإلهية ثم تصدق الله ثم توحيده ثم الإخلاص له، و الان سننُرُجُ إلى المرحلة الخامسة، و قد شرحتها الأسفار قائلاً:

قوله عليه السلام: و كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، أراد به نفي الصفات التي وجودُها غيرُ وجود الذات (إذ الصفةُ تغايرُ الموصوف) و إلا فذاه (البسيط) بذاته مصداق لجميع النعوت الكمالية و الأوصاف الإلهية من دون قيام أمر زائد بذاته تعالى (خلاف الإنسان الذي تزيد صفاتُه على ذاته فربما يقدر و ربما يعجز فهي ليست من ذات الإنسان)، فرض أنه صفة كمالية له، فعلمُه و قدرته و إرادته و حياته و سمعه و بصره كلها موجودة بوجود ذاته الأحادية مع أن مفهوماتها متغيرة و معانيها متخالفة فإن كمال الحقيقة الوجودية في جامعيتها للمعنى الكثيرة الكمالية مع وحدة الوجود.

إذن، فيتَلَخَّصُ الإخلاصُ في الزهد القلبي الاعتقادي - لا العملي - إخلاصاً عن كافة الصفات المأشينة و النواقص و... وفقاً لتفسير ابن ميثم، وقد أشار السيد الخوئي أيضاً إلى كيفية انعدام الصفات السلبية عن الذات الإلهي.[1]

فرغم أن عبارة "نفي الصفات عنه" ظاهر في نفي كافة الصفات عن الباري، إلا أن الإمامية وفقاً لسائر الأدلة الأخرى، قد أطبقت على أن الصفات الذاتية تعدّ عينَ الذات فلا تتفككُ عنه، فنَسْتَرِجُ أن مَنْوِيَ الإمام هي حذفُ الصفات العارضية الزائدة أو السلبية عنه الباري.

بل نترقى فنقول: إنَّ حملَ الصفات الذاتية على ذات الله كالعلم أو القدرة يُعدُّ مسامحةً لدى أذهان البشر إذ قوَّة التخييل لدى الإنسان متوقف على تصوير صورةٍ مَّا، لكي يُصدِّقُها، بينما قد شرحتنا مسبقاً عينيَّةَ الصفات الذاتية مع الذات الإلهي بلا اثنينية في البين فالله هو العلم و القدرة و الحياة بتمامها، إذن أمثل هذه التعبير تعدّ مسامحةً من باب ضيق الخناق.

إنهاء الحوار من كتاب الأسفار

قوله عليه السلام: لشهادة كلّ صفة أنها غير الموصوف و شهادة كل موصوف أنه غير الصفة، إشارة إلى برهان نفي الصفات العارضة سواء فرضت قديمة كما يقوله الأشاعرة (بأن صفاتَه زائدةٌ على ذاته و لكنها قديمة) أو حادثة، فإن الصفة إذا كانت عارضة كانت مغایرة للموصوف بها و كلّ مغایرٍ في الوجود، فكلّ منها متميّز عن صاحبه بشيءٍ و مشارك له بشيءٍ آخر و ذلك لاشتراكهما في الوجود (فنفي الصفات التي ذكرها الإمام هي الصفات الزائدة العارضية لأنها تُغایر الوجود لا الصفاتُ الذاتية التي هي عينُ وجوده تماماً) و محالٌ أن يكون جهة الامتياز عينَ جهة الاشتراك و إلا لكان الواحد بما هو واحد كثيراً بل الوحدة بما هي وحدة بعينها كثرة هذا محال - فإذاً لا بد أن يكون كل منهما مركباً من جزءٍ به الاشتراك و جزءٍ به الامتياز فيلزم التركيب في ذات الواجب و قد ثبت أنه بسيط الحقيقة هذا خلف و إليه الإشارة بقوله.[2]

و باختصار، من المبرم أن ننفي الصفات المُتواجدة في المخلوقين لأنها حادثةٌ و كذا الصفات السلبية لأن الله كمالٌ محض - حتى لو كانت قديمةً - إذ بسيطُ الحقيقة من جميع الجهات يُعدَّ عديم التركيب حتى تركيباً وصفياً و موصوفياً، أجل، إن المُمكناً المادية تتمتع بأجزاءٍ مادية و الممكناً العقلية كالمَلَك تتمتع بأجزاءٍ عقلية، بينما الباري تعالى هو منعدمُ التركب و الجزئية لأنهما يَنْطَلِبُانِ الفقر و الحاجة بينما الباري تعالى بريٌ عن الأجزاء المادية و العقلية إطلاقاً، فكلُّ هذه البيانات وفقاً للأسفار الذي استَحْكَمَتْ مقالُهُ بخطبة الإمام عليه السلام.

فمن وصفه فقد قرَّنه إلى قوله فقد جعله، أي من وصفه بصفة زائدة فقد قرنه بغيره في الوجود و إذا قرنه بغيره فقد جعل له ثانياً في الوجود و كلما فرضه ثالثاً اثنين فقد جعله مركباً ذا جزئين بأحدهما يشاركه في الوجود و بالآخر يباينه - فكلامه عِإذ هو منبع علوم المكافحة و مصدر أنوار المعرفة نص على غاية تنزيهه تعالى عن شوب الإمكان و التركيب فيلزم من هذا التنزيه و التقديس أن لا موجود بالحقيقة سواه و هذه الممكناً من لواط نوره و عكوس أضوائه و قد مرت الإشارة إلى أن غاية التوحيد توجب أن يكون الواحد الحقيقي كل الأشياء فهو الكل في وحدته و لهذا عقب هذا الكلام الذي في نفي الصفات.[3]

بقوله عليه السلام و من أشار إليه فقد حده إلى آخره، أي من أشار إليه بأي إشارة كانت حسية أو عقلية بأن قال لها هنا أو هناك أو كذا و كذلك فقد جعله محدوداً بحد خاص و من حده بحد معين فقد عده أي جعله واحداً بالعدد لا بالحقيقة و قد ثبت أن وحدته الحقة ليست مبدأ الأعداد و واحد الأفراد و الأحاداد و هو محال.

و على هذا يجب أن لا يكون ممحصراً في شيءٍ و لا يخلو عنه شيءٍ فلا يكون في أرضٍ و لا في سماءٍ و لا يخلو عنه أرضٍ و لا سماءً كما ورد في الحديث لو دلّتكم بحبل على الأرض السفلية لبقيط على الله و لهذا قال عليه السلام: و من قال فيم فقد ضمنه و من قال على م فقد أخلي منه، تصديقاً لقوله تعالى هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ و قوله مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ تَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ و قوله تعالى وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حِلْمِ الْوَرِيدِ و قوله في الحديث القدسي: كنت سمعه و بصره و يده و قوله النبي ص: إنه فوق كل شيءٍ و تحت كل شيءٍ قد ملأ كل شيءٍ عظمته فلم تخل منه أرضٍ و لا سماءٍ و لا بحرٍ و لا هواءٍ و قد روي أنه قال موسى: أَقْرِبَ أَنْتَ فَأَنْاجِيكَ أَمْ بَعِيدَ أَنْتَ فَأَنْادِيكَ فَإِنِّي أَحْسَنُ حَسْنَ صَوْتِكَ وَلَا أَرَاكَ فَإِنِّي أَنْتَ فَقَالَ اللَّهُ أَنَا خَلْفُكَ وَأَمَامُكَ وَعَنْ يَمِينِكَ وَشَمَالِكَ أَنَا جَلِيسٌ عِنْدَ مَنْ يَذَكُّرُنِي وَأَنَا مَعَهُ إِذْ دَعَانِي وَأَمْثَالُ هَذَا فِي الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ كَثِيرَةٌ لَا تَحْصَى.[4]

لمحة أساسية حول الأسفار

إن التجولُ و الانغماس في مقوله الأسفار لا يعني تبريرَ كافة مقالاتِ الفلسفه بل إن الأسفار كشتى الكتب الأخرى قد واجهَ اعترافاتٍ بل هجماتٍ عديدةٍ، و ذلك لأن عبائرَ الحُكْمَاءِ ربما تُوهم باعتقاداتٍ مُزَيَّفة، فمعنى اتحادِ الموجودات مع الله تعالى لا يستتبعُ اندماجه تعالى مع النواقص و الشوائب أيضاً، بل مقصودُهم أن الوجودُ الحقيقى المُتَكَاملُ الإلهي قد أفيضَ على شتى الموجودات فتَوَاجَدَتْ بنحو وجودٍ غير حقيقىٍ إذ الوجودُ الحقيقى هو بسيط الوجودِ الصرفِ، و أما النواقص و المعايب العارضة على الموجودات فقد نشأت من هذه النشأةِ الدينويةِ الحادثة إذ كلَّ ممكِن حادثٍ و ناقصٍ بَتَّا، و لهذا قد قال تعالى: ليس كمثله شيءٍ، فكلُّ المُمَاثِلَاتِ تُغَيِّرُ المُتَمَثَّلَ به في أصل الوجودِ القديمِ الكاملِ النَّاتِمِ، رغم أن أصل الوجودِ نابعٌ عن الله تعالى، إذن، من المستحيل أن يُمَاثِلَ شيءٍ وجودَ الله تعالى إذ لا شريك له أساساً، و من هنا قد اتضَحَّ لِكَ أن السنخية المطروحة ضمن الفلسفه هي على سُنْخَه هذه الآية و على نسق خطبة أمير المؤمنين عليه السلام إذ إننا نسيِّرُ إثْرَ مسارِ الكتاب و العترة فحسب فلا تدعَمَ علم الفلسفه بأسرهِ إلا المطالب المشحونة من جانبِ الشرع، و أما علم الفلسفه يُعدَّ ذريعةً للتعقل في أمثل هذه المتناون الاعتقادية العميقه و لا يُدركُ الإنسان مغزاها إلا باليراهين العقلية السليمة، فمن تلك المتناون: يا مَنْ دَلَّ على ذاته بذاته. و كذا الآية: شهد الله أنه لا إله إلا هو...، إذن، فذاته هو الذي قد نفيَ الصفاتِ الزائدةَ عن ذاته، فوعيُ هذه البيانات الطريقة تفتقر إلى الاستدلالات العقلية فإن الإمام عليه السلام قد صرَّحَ قائلًا:

يا هشام: ما بعث الله أنباءه و رسله إلى عباده إلا ليعقلوا عن الله فأحسنهم استجابةً أحسنهم معرفة، و أعلمهم بأمر الله أحسنهم

عقل، و أكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا و الآخرة. يا هشام: إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة و حجة باطنة، فاما الظاهرة فالرسل و الأنبياء و الأئمة عليهم السلام، و أما الباطنة فالعقل.[5]

- [1] منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة.[1]
- [2] الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربع، قم - ایران، مکتبة المصطفوی، جلد: ۶، صفحه: ۱۴۰.
- [3] الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربع، قم - ایران، مکتبة المصطفوی، جلد: ۶، صفحه: ۱۴۱.
- [4] الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربع، قم - ایران، مکتبة المصطفوی، جلد: ۶، صفحه: ۱۴۱.
- [5] التعلیقة على کتاب الكافی، قم - ایران، مطبعة الخیام، صفحه: ۲۴.